المقتطف

الجزء الخامس من السنة الخامسة عشرة

١ شباط (فبراير) سنة ١٨٩١ الموافق ٢١ جمادى الثاني سنة ١٣٠٨

جهاد العلماء

النبذة الاولى في المجنون والمجانين

مَن شاء ان يرى فضل العلم والعلماء واهتمام الحكومة الخديويَّة براحة رعاياها وتخفيف مصائبهم وافتدار الوطنيين على ادارة الاعمال اذا تُرِكوا لانفسهم فليزُرْ بيمارستان المجانين (المجاذيب) في العباسيَّة برَ فيهِ جمهورًا من الَّذين اختلَّت عقولهم لسبب من الاسباب الطبيعيَّة فدفعهم ذووهم الى مَن يعتني بهم اشد الاعتناء حَتَّى يصطلح ما اختلَّ من ادمغتهم ويتقوَّم ما اعوجَّ من اخلاقهم ويهتم بأكلهم ومشربهم وملبسهم ومبيتهم حتَّى تكون راحتهم على اتمها . واذا رأى ذلك كلهُ وقابلهُ بما كانت عليهِ احوال هؤلاء التعساء في قديم الزمان وبالعذاب الذي كانوا يقاسونهُ فوق ما بهم من العذاب لم يسعهُ الَّا الاقرار بفضل علماء الطب الَّذين ازاحوا النقاب عن حقيقة الجنون ودعوا الناس الى الرفق بالمجانين ولاسيما لان ذلك اوقعهم في حرب عوان مدة سنين كثيرة واليك بيان ذلك بالتفصيل

اعتقد الناس من قديم الزمان ان الامراض كلها بنوع عام والامراض العصبيَّة بنوع خاص والجنون بنوع اخص سببها حلول الارواح الشريرة في بدن الانسان . ومهما يكن السبب لهذا الاعتقاد فقد كان شائعًا في كل المسكونة ولم يزل شائعًا في اماكن كثيرة في المشارق والمغارب . الَّا انهُ لا تخلو قاعدة من شذوذ فمن قديم الزمان شذَّ البعض عن غيرهم في هذا الامر واعتقدوا وعلَّموا ان الجنون مرض عصبي طبيعي فقد قال بقراط الذي

نشأ في القرن الخامس قبل المسيح ان الجنون مرض من امراض الدماغ وتابعهُ اراتيوس في القرن الاول المسيحي وسورانس وجالينوس في القرن الثاني واشارا ان يعالج المجنون بالرفق والتؤدة واقتفى خطواتهما كثيرون من مشاهير الاطباء الى ايام جالينوس العرب الشيخ الرئيس ابن سينا فانهُ لما ذكر امراض الرأس جعل منها اختلاط الذهن والهذيان والرعونة وفساد الذكر وفساد التخيل والمانيا والمالنخوليا ووصف هذه الامراض وصفاً ينطبق على وصف ضروب الجنون الآن وقال في الكلام على علاج المالنخوليا ما نصهُ " يجب ان يبادر الى علاج هذا الداء قبل ان يستحكم فانهُ سهل في الابتداء صعب عند الاستحكام ويجب على كل حال ان يفرّح صاحبهُ ويُطرّب ويُجلس في المواضع المعتدلة ويُرطّب هواء مسكنهِ ويطيب بفرش الرياحين فيهِ وبالجملة يجب ان يشم دائماً الروائح الطيبة والادهان الطيبة ويتناول الاغذية الفاضلة الكيموس المرطبة جداً ويدبر في تخصيب بدنهِ بالاغذية الموافقة وبالحمام قبل الغذاء ويصب على رأسهِ ماء فاتر ليس بشديد الحرارة واذا خرج من الحمام ويهِ قليل عطش فلا بأس ان يسقى قليل ماء ويستعمل لهُ الدلك المخصب المذكور في باب حفظ الصحة الخ " وقد أشار الشيخ الرئيس بمداواة بعض المجانين بالشدة اذا لم ينجع اللين فيهم وانكتهُ حسب ذلك واسطة لتنبيه اعصابهم ولم يشر قط الى ان فيهم شيطاناً يجب اخراجهُ منهم

ولسوء الطالع عادت الاوهام فتغلبت على عقول الناس في المشارق والمغارب فعدلوا عن مداواة المجانين بالتدبير الصحي والدوائي الى مداواتهم بالعزائم والتقاسيم ومعاملتهم بالعنف والشدة لاخراج الشياطين منهم. وشاع ذلك في اوربا كلها مدة قرون كثيرة ولم يزل شائعاً في بلادنا الى يومنا هذا. ويقول علماء اوربا ان اهل المشرق هم الذين اوهموا اهل المغرب بان الجنون مس من الشيطان. وسواء كانوا مصيبين في ما يقولون او غير مصيبين فلا شبهة في ان هذا الاعتقاد ابعد في اوربا واثمر اثاراً خبيثة ولا سيما في القرون الوسطى. ولو اردنا الافاضة في الشرح لملأنا مجلداً كبيراً بذكر الاوهام التي نتجت عن هذا الاعتقاد والفظائع التي ترتّبت عليهِ. وجميع الذين ألفوا في هذا الموضوع الفوا اللوم على آباء الكنيسة ورجال الدين ولكنا لا نراهم ملومين لانهم انما فعلوا عن إخلاص بحسب ما كانوا يعتقدون كما اننا لا نلوم الاطباء الذين كانوا يعالجون اكثر الامراض بالفصد العام حينما كانوا يعتقدون انهُ انجع علاج فيها. وهذا سبيل البشر في ارتقائهم يرون المسببات ويغشون عن اسبابها فيصيبون تارةً ويخطئون اخرى. واذا ساروا بحسب معارفهم فلا لوم عليهم

ولا تثريب . ونحن في هذا العصر قد نكون معتمدين على امور نظنها حقائق راهنة ونعمل بموجبها ثم يأتي زمان تظهر فيه انها اباطيل واننا باتباعها كنا في ضلال مبين . وفي ذكر العقبات التي اعترضت سبيل العلم في العصور السالفة وتغلّب العلم عليها اخيرًا عبرةٌ لاهل هذا العصر لكي لا يقنوا في طريق العلم بل يسهلوا سبلهُ بقدر طاقتهم . اما الذين يحاولون اطفاء نور العلم لكي تبقى خرافاتهم واضاليلهم متسلطة على النفوس فاحقر من ان يُنتبه اليهم او يُكترَث لهم ومثل دقائق الغبار التي تدخل بين اجزاء الآت البخار فتعاوق حركتها مدةً ثم لا تلبث ان تخرج من نفسها او تنطحن وتصير هباء منثورًا والعلم يسمو ويرتقي وتخضع له العقول والنفوس

قلنا ان الناس اعتقدوا ان المجنون مسٌّ من الشيطان وان في كل مجنون شيطانًا يجب اخراجهُ منهُ لكي يشفى فاحتالوا على الشيطان بالتقسيم والتعزيم . وقد ورد في كتاب كبير يدعى خزانة التقسيم ما يدلُّ على انهم كانوا يقصدون اغاظة الشيطان وتحقيرهُ بالسباب والشتائم مثل قولهم له ايها السنيه البليد الخنزير النجس ايها الوحش الخبيث ايها الذئب الخاطف ايها التمساح الحسود . والتهويل عليهِ بكلمات طويلة مستعارة من العبرانيَّة واليونانيَّة . ثم يقسمون عليهِ بآيات مختارة من التوراة والانجيل كقولهم اقسم عليك بالصادق الامين البكر من الاموات ورئيس ملوك الارض اقسم عليك بذاك الذي احيانا وغسلنا من خطايانا بدمهِ . . . . . ان تخرج من هذا الانسان وتبتعد عنهُ بعيدًا . وقد اورد ظيوبكي (Dziewicki) اقوالاً كثيرة من هذا القبيل في جريدة القرن التاسع عشر الانكليزية وقال ان الغرض الاول من التقسيم على المجانين تقوية ايمان المؤمنين وحمل غيرهم على الايمان لان الجميع كانوا يعتقدون ان الجنون مسٌّ من الشيطان اما الآن فلم يبقَ داعٍ للتقسيم لان المؤمنين وغير المؤمنين لم يعودوا يعتقدون ان الجنون مسٌّ من الشيطان . ثم قصَّ قصة راهب امتنع من نفسهِ عن القيام بالفرائض الدينيَّة مدة تسع سنوات ورأى رفاقهُ الرهبان منهُ ذلك ولم يحاولوا اخراج الروح الشرير منهُ بالتقسيم لان ذلك لا يفيد المؤمنين في هذا الزمان ولا غيرهم بل يدعو الى القيل والقال . وفي هذا القول من التكلف ما فيهِ والاقرب الى الصواب في رأينا ان الذين كانوا يقسمون على المجانين كانوا يعتقدون ان التقسيم يخرج الشياطين منهم وقد فعلوا ما فعلوا ببساطة قلب بحسب اعتقادهم ولا لوم عليهم كما قدَّمنا وان رفاق هذا الراهب لم يقسموا عليهِ إما لانهم لا يعتقدون ان بهِ شيطانًا او لانهم يعتقدون ان التقسيم لا يخرج الشيطان والاَّ لقسموا عليهِ سرًّا بدون ان يدري احد بما فعلوا فان ذلك

أدنى الى الشفقة والمحبة من ترك اخيهم تسع سنوات تحت سلطة ابليس

ولم يزل التقسيم مستعملاً في بلادنا ولو على قلّة وقد رأينا بعض الكهنة يقسمون على المجانين وهم معتقدون تمام الاعتقاد ان التقسيم يخرج الشيطان منهم ولم يخطر لهم ولا لنا حينئذٍ ان الغرض الاوّل من التقسيم تثبيت ايمان المؤمنين وارشاد غيرهم الى الايمان كما يدّعي طوبكي

ولا يبعد ان التقسيم وما يتبعهُ من الرسوم الدينيّة كانت تؤثر في بعض المجانين تأثيرًا حسنًا فتفعل بمجموعهم العصبي فعل الادوية المنوعة كما انها كانت تؤثر في غيرهم تأثيرًا رديئًا على قول طوبكي نفسهِ . وقد قسم هذا الكاتب البليغ الجنون الى نوعين اخلال عقلي مرضي ومس شيطاني وحاول ان يثبت وجود المس الشيطاني في عصرنا هذا مستشهدًا بالسبرتزم والنوم المغنطيسي وما اشبه وقد كتب ما كتب منذ سنتين وبضعة اشهر ولو كتب الآن لعدّل عن هذا القول ايضًا . ومن المؤكد ان الجميع كانوا يعتقدون ان كل ضروب الجنون كانت بمس من الشيطان حتّى ان بعضهم تجاسر وهو يشرح الانجيل متى وقال ان بعض المجانين يكون جنونهم من تأثير القمر لا من فعل الشيطان فقاموا عليهِ النكير وقالوا ان جنونهم كان من فعل الشيطان الذي كتب هذا الكتاب في نور القمر . ولذلك لاقى الاطباء اشد الصعوبات حتّى اقنعوا الجمهور بان الجنون مرض عقلي طبيعي يمكن مداواتهُ كما يداوى غيرهُ من الامراض ورُشقوا بالكفر لانكارهم فعل الشيطان بالمجانين حتّى قيل حينما وجد ثلاثة اطباء فمنهم كافران Ubti tres Medici duo Ahei وجرى ذلك مثلاً

واول الاطباء الّذين جاهروا بان بعض ضروب الجنون مرض دماغي هو يوحنا ويير الالماني واذاع رأيهُ في كتاب فناومهُ اشهر علماء عصرهِ وسفّهوا رأيهُ . ثم قام دمُ منتاني الفرنسوي والف في هذا الموضوع مدّعيًا ان الجنون مرض دماغي فسُفّهَ قولهُ ايضًا . وجرى رجل هولندي اسمهُ بكر على اثرهما واستدلّ بآية من رسالة بطرس الثانية على ان الشيطان مقيّد الآن ولا يمكنهُ ان يفعل الافعال الّتي تنسب اليهِ فاقاموا عليهِ النكير ولم يكد ينجو بجانبهِ

الاّ ان اشعة شمس الحق بزغت من خلال سحب الاوهام حتّى انهُ لما ادّعى البعض انهم تدمّنوا بالزيت فصاروا ذئابًا وافترسوا الاطفال حُكم عليهم بالذهاب الى البيارستان ولم يحكم عليهم بالحرق كما حكم على سمعان مارين الذي ادّعى انهُ ابن الله فحرق في مدينة

باريس وذري رمادهُ الى الرياح الاربع . وكانت مدينة باريس اول منتصرة لهذا الحق ولو احتجبت انوارهُ عنها مدة بمواعظ الشهير بوسيه . وسنة ١٧٢٥ تجاسر سنت اندره طيب بلاط الملك على نشر كتاب قال فيهِ ان الجنون كلهُ مرض دماغي وحكم برلمنت باريس بذلك سنة ١٧٦٨

واول من جاهر بهذا الحق في انكلترا الشهير جون لوك فلقي من المقاومة اشدها وكان الشهير ولسلي اكبر مقاوميهِ ولكنَّ الحق يقوى ولا يقوى عليهِ فنسخت انكلترا عقاب السحر من قوانينها سنة ١٧٢٥ واطلقت الحريَّة لرجال العلم ليقولوا في الجنون ما شاؤوا . وجرت بلاد النمسا في السبيل العلمي الصحيح فامرت الدكتور هين ان يبحث البحث الدقيق في امر الجنون فحكم انهُ لم يرَ في كل الذين تفحصهم ما يثبت تأثير الشيطان فيهم . وقد لاقى الامبراطور جوزف الثاني من المقاومة اشدها لانهُ حاول انقاذ المجانين من قبضة الذين كانوا يحكمون بان الشياطين ساكنة فيهم . وما لم يقدر عليهِ هذا الامبراطور قدر عليهِ رجال العلم . وسنة ١٧٢٩ اصيبت امرأة بالجنون فحكم ان بها شيطانًا واستعملت لها كل انواع التفاسيم والرقى فلم تجدِ نفعًا وفي الآخر استعملت لها الوسائط الطبيَّة فخفت عنها نوعًا ولما ماتت فتح الاطباء رمتها امام رجل من قبل الحكومة فوجدوا انها مصابة بالتهاب الدماغ المزمن

ولم يتوسط القرن الثامن عشر حتَّى اهملت التفاسيم من الكتب الدينيَّة في اكثر ممالك اوربا . ثم صرف الفضلاء عنايتهم الى اصلاح شؤون البيمارستانات والاطباء الى اكتشاف اسباب الجنون وعلاجهِ . ومن اشهر الذين تذكر اسماؤهم في هذا الصدد بينل الفرنسوي وتوك الانكليزي اما بينل فانهُ اقام في بيمارستان بيستر بباريس والغى منهُ كل ضروب التقسيم والتعويذ وطرح السلاسل والاغلال وحسب ان الجنون مرض طبيعي وعامل المجانين باللطف واللين على ما اشار بهِ ابن سينا فتكللت اعمالهُ بالنجاح واشتهرت في اوربا كلها . وفيما كان بينل يهتم باصلاح شؤون المجانين في فرنسا كان وليم توك يهتم باصلاح شؤونهم في انكلترا ولم يلقَ من اهل بلادهِ غير المقاومة وبقيت احوال البيمارستانات في انكلترا سيئة حتَّى سنة ١٨٢٧

والآن قد وُضعت معالجة المجانين على اُسس علميَّة وصار الجنون يعالج كما يعالج غيرهُ من الامراض . ولا يستطيع الاطباء ان يشفوا كل مجنون كما لا يستطيعون ان يشفوا كل مريض ولكنك اذا راجعت الآن كتب الطب كلها لم ترَ فيها الا التصريح بان الجنون

مرض عصبي

وجملة القول ان ما علّم به بقراط وجالينوس وابن سينا منذ قرون كثيرة عاد فتغلّب في هذا العصر وان الذين قاوموهُ في القرون الوسطى لم يفعلوا ذلك مقاومةً للحق بل طاعةً لما كانوا يعتقدونهُ حقًّا. وسبحان من تنزه عن الخطاء

جذور النبات

مَن يسافر في النيل جنوبًا حيث غياض النخيل منتشرة على ضفتيهِ يشاهد بعض الاشجار وقد اعتدى عليها الماء وجرف التراب من تحتها وترك جذورها عارية مدلدلة كانها ذوائب تكلى نشرت حزنًا وثبورًا. ورأس كل جذر من هذه الجذور صقيل السطح اسفنجي القوام وقد كان المظنون انهُ واسطة لامتصاص الرطوبة من الارض ثم ثبت ان الرطوبة تمتصها الجُذَيْرات الشعرية التي حولهُ واما هو فكالرائد الذي يسير امام الجيش يهديهِ في المسالك ويفتح الطريق امامهُ

وسير الجذور في الارض يكاد يرفعها من منزلة الجماد والنبات الى منزلة الحيوان الذي يسعى لنفسهِ فانها تنمو طولاً وثخنًا بقوة غير شديدة فقوة نموها الطولي تبلغ نحو ربع رطل اي انها ترتفع ربع رطل بهذا النمو وقوة نموها العرضي تبلغ نحو ثمانية ارطال ولكنّ هذه القوة مستمرة وقد تستطيع ان تشقّ اقوى الصخور بها فالتين والزيتون تسري جذورها في الصخور الصلبة وتشققها والصنوبر والسنديان فلا يقوى على جذورها شيء

وقد رأى الشهير دارون ان رؤوس الجذور تتحرك في خط لولبي والظاهر انها تستعين بهذه الحركة على وجود اقل الاماكن مقاومة لسيرها فتسير فيهِ ولا بدَّ من ان تخضع في سيرها للفواعل الخارجيَّة واقوى هذهِ الفواعل الجاذبيَّة الارضيَّة اي الثقل ولذلك ترى اكثر الجذور الاصليَّة غائرة في الارض نحو مركزها. واذا اقتُلع النبات ووضع بحيث يمتدُّ جذرهُ افقيًّا وترك كذلك بضع ساعات عاد الجذر فنما الى اسفل لا لانهُ يخفّ بثقلهِ بل لانهُ يميل الى النمو الى اسفل ودليل ذلك انك لو وضعت تحتهُ شيئًا يسندهُ لما كان ذلك مانعًا يمنعهُ عن الانحناء الى اسفل كأنَّ في الجذب الى اسفل قوَّة مستمرَّة تحرك الجذر في نموهِ الى اسفل ولو أُبدلت هذه القوَّة بقوة اخرى تحرِّك الجذور الى جهة